محمد عنانى

طَــوْقُ نَجَــاة

قصة شعرية

وقصائد أخرى

القاهرة ٢٠٠٤



الفهرس

التصدير

لم أكن أود أن أقدم لهذه القصائد بشيء ، اكتفاءً بمقدمتى للقصيدة التى تحمل عنوان المجموعة ، فهى على إيجازها تفى بالغرض، واكتفاءً بالنصوص نفسها، فهى ليست فى حاجة إلى تقديم، ولكنّ ما أسميته **المحاكاة** فى المقدمة المذكورة قد يحتاج إلى إيضاح، إذ إننى عندما ترجمت الأناشيد الأربعة الأولى من الملحمة الساخرة التى كتبها الشاعر الإنجليزى لورد بايرون بعنوان **دون چوان** (القاهرة - ٢٠٠٤) كتبت فى المقدمة أقول إننى كنت أتمنى أن أترجمها نظمًا ، ولكننى ترجمتها نثرًا ، ولم أترجم نظمًا إلا الإهداء (١٧ فقرة) وترنيمة جزر اليونان فى

النشيد الثالث (١٦ فقرة) ، ومن بحرين لا يعتبرهما بعض الشعراء شعرًا (الرجز والخبب) ، وكانت أسباب إحجامى عن الترجمة المنظومة متعددة، منها طول الملحمة (أكثر من ستة عشر ألف بيت – وإن لم أترجم حتى الآن إلا ٥٥٦٠ بيتًا) ومنها – وهذا هو الأهم – كثرة الاستطرادات التى يوجهها الشاعر إلى **قراء عصره** ، وكذلك فى **إنجلترا نفسها** ، أى تلك الخصوصية الثقافية التى قد تحول دون نقل ما يسمى بالرسالة الشعرية التى لا تتحقق إلا بين الشاعر وجمهوره الذى يخصه بالخطاب ، وسوف يتضح ذلك لقارئ الترجمة العربية المنشورة بما فيها من إشارات إلى أحداث عصر الشاعر والشخصيات التى عرفها والأحوال السياسية فى بلده وما إلى ذلك ، مما استلزم إيراد حواشٍ مستفيضة (ومقدمة وافية) وكنت أقول فى نفسى ليتنى كنت أستطيع 'التصرف' فى **المادة الشعرية** التى يتناولها بايرون فأقدمها فى قالب شعرىّ يتذوقه القارئ العربى !

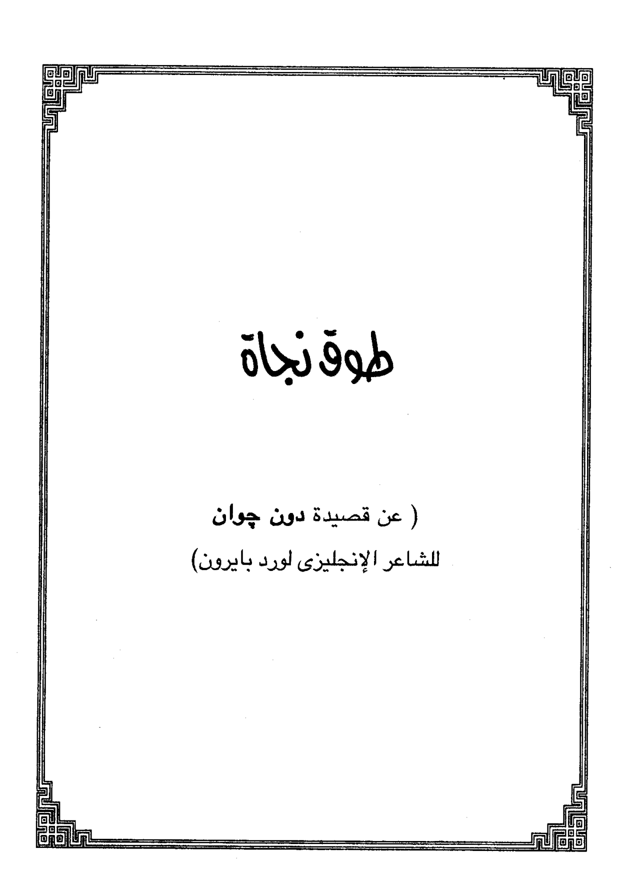
وعندما بدأت أكتب وصفى – شعرًا عربيًا – لوصول دون چوان ، دون أن أسميه ، إلى الشاطئ ناجيًا من الغرق ، ولقائه

بهايدى، كنت أتصور ألا يستغرق الوصف إلا صفحات معدودة، ولكن شيطان الشعر أبى إلا أن أكمل القصة ، فأكملتها ، على نحو ما ذكرت فى مقدمتى لها ، أى إننى لم أقتبس من بايرون إلا القصة ، وإن كان الشاعر الإنجليزى قد اقتبس القصة بدوره من غيره ، فالقصيدة العربية إذن أقرب إلى التأليف منها إلى الترجمة ولو كانت من نوع المحاكاة (النوع الذى نص عليه درايدن) .

ولما كانت القصيدة ، على طولها وتنوع قوافيها وحالاتها النفسية، لا تكفى لديوان شعر، مهما صغر حجمه، فقد أضفت إليها قصائد أخرى من بحور مختلفة ، كتبتُها جميعًا بعد صدور ديوانى الأخير **حورية أطلس** (القاهرة٢٠٠٢) وعلى مدى فترات زمنية طويلة . وأرجو أن تُكَوِّن فى مجموعها صورة عامةً لما وصلت إليه على هذا الطريق

محمد عناني

القاهرة - ٢٠٠٤



طوق نجاة

(عن قصيدة **دون چوان**

للشاعر الإنجليزى لورد بايرون)

هذه قصة دون چوان وهايدى ، التى استوحيتها مما رواه الشاعر الانجليزى لورد بايرون فى الملحمة الساخرة الطويلة التى تحمل عنوان **دون چوان** ، والتى يعتمد فيها إلى حد كبير على التراث الأدبى لأسطورة دون چوان ، والنص الكامل للقصيدة الانجليزية مترجم إلى العربية (الأناشيد الأربعة الأولى - ٥٥٦٠ بيتًا من الشعر - ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٤) . ولكن هذه القصيدة تحاكى القصة فقط أو تقتبسها ، لا صور الشاعر ولا أسلوبه (ولا إيقاعاته وقوافيه - بطبيعة الحال) ولمن يريد المقارنة أن يرجع إلى الطبعة المذكورة ، من الفقرة ١٠٤ من النشيد الثانى حتى الفقرة ٧٢ من النشيد الرابع ، أى إن طول القصة فى تلك القصيدة يبلغ ٢٤٥٤ بيتًا من الشعر ، بسبب استطرادات بايرون الكثيرة ، وحَيْده عن القصة إلى تأملات يرويها الرواة المختلفون للأحداث ، أما القصة العربية هنا فلا يزيد عدد أبياتها إلا قليلاً عن ربع عدد أبيات القصة الواردة فى قصيدة بايرون ، فإن شئت فَسَمِّها محاكاة حرة ، أو استلهامًا للأصل الانجليزى وحسب ، إذ اقتصرت على رَاوٍ واحد للأحداث ، وهو الراوى الهرم الذى يفسر القصة من وجهة نظر واحدة (انظر مقدمتى للترجمة المذكورة) وسوف يلحظ القارئ أننى التزمت بالبحر الكامل ، أحد بحور الشعر الثلاثة التى كثر دورانها فى الشعر العربى ، وهى الطويل والكامل والبسيط - كما يقول أبو العلاء المعرّى - باستثناء أغنية الوصيفة التى أتت من البحر المقتضب ،

وهو من البحور التى لم تشع كثيرًا فى تراثنا العربى ، على رقته وعذوبة إيقاعه، (وقد ظلمه الأخفش والزجاج وإن لم يظلما المضارع)، وأبَحْتُ لنفسى ما يُباح فى شعر التفعيلة من تفاوت عدد التفعيلات فى بعض المواضع من سطر لآخر ، وبما يُسمحُ به فى هذا البحر الجميل من ألوان الزحاف والعلل ، ولا أعتقد أننى أتيت بجديد فى تغيير أطوال الأبيات فى سياق القصّ ، فهذا ما يفعله كبار شعراء هذا العصر ، ممن ملكوا ناصية العربية والعروض جميعًا ، بل إننى أرى الآن – وبعد أن انتهيت من القصيدة – أن هذا التغيير تطلبته الحالات الشعورية المتفاوتة طولاً وعمقًا وتكثيفًا ، أى إن اللحظة الشعورية قد أملت طول البيت ، وإن كنت أرى أن البيت خماسىّ التفعيلة (الذى أحببته) غير شائع فى تراثنا . وقد استلزم طول القصة تغيير القوافى وفقًا لتفاوت الحالات الشعورية التى يُصوِّرها الراوى ، وكنت أعمد أحيانًا إلى المراوحة بين قافيتين فى أبيات متعاقبة ، لكنّ وحدة القافية فى **الموقف القصصى الواحد** هو الذى عَمِلْتُ على المحافظة عليه دون قسر أو لجوء إلى الغريب أو الحوشى ، فلغتى – بصفة عامة – هى العربية المعاصرة .

استهلال الراوى

يروى الرواةُ لنا الكثيرَ من المآسى فى العهودِ الخاليَهْ
ويقولُ بعضُهُمُ الكثيرَ من الحكاياتِ الطوالِ الباليَهْ
ولربما المَحتْ عيونُك فى ثناياها الآلئَ غاليَهْ
ولربما انْخَفَضَتْ رُباها بل وفاتَتْها المراقى العاليَهْ
ولربما عَصَرَتْ لنا خَيْرَ الطِّلىَ من كَرْمِ كُلّ داليَهْ
تَسْلُو النفوسَ عن الهمومِ وما سواها بالأماسِى ساليَهْ
حتى لو اشتطّ الخيالُ فإنها للصّدقِ بعدُ مُواليَهْ
لم أَعْدُ عن صدقِ الروايةِ فاسمعوا ما قد أتى بِمَقَاليَهْ
وأُحِسُّ أن الليلةَ القمراءَ أفضلُ ما يكونُ لحاليَهْ
فالليلةُ القمراءُ تأتى دون وَعْيٍ بالقريضِ لِباليَهْ
فتهيجُ بى الذّكرىَ وبذكُو بعضُ جَمْرٍ فى الحَشَا وخَيَالِيَهْ

ولسوفَ أُمْلِي ما يشوقُكُمُو ففيها قَدْ تصيبُ أَمَالِيَهْ
يا مَنْ جلستمْ فى الحديقةِ تسمعونَ وتنظرون حَوَالِيَهْ
إنّى هَرِمْتُ وقطّع العمرُ الطويلُ على الزمانِ حِبَالِيَهْ
بل ليسَ عندى غيرُ هذا الشعرِ مالٌ فاستطيبوا مالِيَهْ !
ولسوف أحكى هذه المأساةَ فى ألحانها مُتَوَالِيَهْ
فإذا لَمَحْتُم فيه أى مثالبٍ توحى بسوءٍ مَالِيَهْ
فحذارِ أن تُفْضُوا بها أو أن يَعيبَ البعضُ كَرْمَ دَوَالِيَهْ
رباتُ شعرِى قد غَدَتْ فى فَنّها (بعد الصبا) مُتَعَالِيَهْ !

(١)

أَلْقَتْ به الأمواجُ فى خَفَقَانها

جسداً نحيلاً فوق رمل الساحل المهجورْ

غَرِقت سفينته هنا .. لم يَنْجُ من رُكْبانها

إلا حطامٌ باردٌ ورفاتُ أجسادٍ تدور

فى بعض دوّامات موجٍ فائرٍ مسعور !

شطٌّ غريبٌ مُقفرٌ ..

حصباؤه فوق الرمال تناثرت حَيْرىَ

كحبّاتِ العقيقِ اللامعِ المنثور

تعلوه من زبد المياه – إذا تراخى الموجُ –

فقاعات ضوءٍ غامض مسحور !

وبدا بها قوس الغمام كأنما

حَمَلَ الطيوفَ من السماء إلى مهاد الأرض رمزَ حياهْ

خفاقةً متراقصهْ

فَبَدَتْ لِعَيْنَىْ ذلك المسكين طوقَ نجاهْ

شَغَلَتْهُ وهو يدير طَرْفًا خابيًا منذ ارتمى

بل منذ أن مَسَّ النواتىء من تعاريج الصخور

وتَشَبَّثَ الناجى الهزيلُ بما احْتَوَتْهُ يداه من رَمْلٍ بَلِيلْ

أو من حَصىً زَلِقٍ يفرّ من الأصابع فى فتور

لكنه مَلَكَ الفؤاد بِحِسٍّ تلك اليابسهْ

وشَجَتْهُ أصواتُ الطيورِ تَرِنُّ والأصداءُ

تُرجعُها كهوفٌ موحشهْ

تبدو عيونًا للقبور !

وتذكر الناجى رفاتَ رفاقِهِ

فى جوف يَمٍّ هادرٍ مسجور

فغشاهُ همٌّ من رؤى الأطياف إذ تنثال أو تنبو

وتخلط بين عينيه الصُّوَر
وعَرَتْهُ رِعْدةُ خائفٍ يترقبُ المجهولْ
وتثاقَلَتْ أجفانُهُ وتَرَاخَتْ الأعضاءُ فى مِثْلِ الذبولْ
فغفا ولم يَحْلُمْ ولم يُدْرِكْ سوى
بعضَ الحلاوةِ فى الأُفولْ !

(٢)

نام الغريب وعندما حَامَتْ طيور الصبح حَوْلَهْ
وبدا النسيم كأنه رُوحٌ من العلياء يُوحَى لَهْ
فتح الجفون محاذراً مثل الذى يخشى الحياهْ
فبدا له مثل المنام خيالُ إنسىٍّ أمامهْ
أتراه ما زال الغريقَ الضاربَ المُلْتاثَ فى ثَبَجِ المياه ؟
هل ذاك ما يَغْشَى العيونَ إذا برَاها اللَّغْبُ تعلوها غَمَامَهْ ؟
أخيالُ إنسىٍّ هنا ؟ بل طيفُ إِنْسِيَّهْ !

طيفٌ رهيفٌ شاخصٌ والشَّعْرُ كالشلالْ !

أقدامُها فى الماء والجسمُ النحيلُ يقوم فى وسط الرمالْ !

جِنِّيَّةٌ خَرَجَتْ من البحر العميقِ بلا جدالْ !

أو صاغَها زَبَدُ اللُّجَيْنِ الدافق السيالْ !

المرمرُ البَرّاقُ فى الساقيْنِ أملسُ مثل تمثالْ !

لا يبلغُ الإنْسِىُّ يومًا مثل ذلك الكمالْ !

قل إنها من بعض ما نسج الخيالْ

والعين خادعة يُمَنِّيها المحالْ

عبثًا يحاول أن يقول بما يُظَنُّ ولا يقالْ !

هل تُبعَثُ الحورية الحسناء فى أطياف آلْ ؟

بل كيف يهذى وَيْلَهُ من سوء ما يُخْفى المآلْ !

بل كيف يرجو أن يعود إلى الحياةِ

حطامُ ما ابتلع الزوالْ !

وكأنما يرجو هروباً من شتاتٍ أو فواتْ

أرخى الجفون كأنما يرجو السباتْ

فالحُلْم أسلمُ من خيالٍ لا يَني يَرْعىَ الظلالْ !

(٣)

وإذا بصَوْتٍ مثل تغريدِ البلابلِ شبْهِ هامسْ

ويُجيبُهُ صوتٌ يُلِحُّ بِلَهْجَةِ الحَذِرِ المُخالسْ

(كان الأخير أقلَّ حُسْنًا مثل رَجْعِ صَدَىً بعيدٍ غير دامِسْ)

أتُرى تكاثرت الطيوفُ أم الجنونُ حلّ ؟

لن يفتح الجفن الثقيل بل السباتُ أمثلْ !

لكنّ ذاك الصوت لحنٌ ليس يُنكرْ

والنفس تهفو للمحال وإن بدا خَلْطًا وأَسْكَرْ !

(٤)

كانت فتاةً فى ربيع العمر ما بين الطفولة والشبابِ

هيفاءُ عيناها بلون اللّيلِ جياش العُبابِ

وعلى الجفون خمائلٌ تزهو من الأهدابِ

وبخدِّها الوَرْدِىِّ أطيافٌ لألوانٍ عِذَابِ

مما يَبُثُّ الشرقُ من نورٍ بأطرافِ السحابِ

توحى بما فى المبسمِ القانى من السحر المُذَابِ

وبما تخبئه الثنايا اللُّؤْلؤاتُ من الرُّضابِ

ويحيطُ بالخصر النحيل حزامُ زهرٍ ناضرٍ غضّ الإهابِ

من سَوْسَنٍ أو من بنفسج أو من الأزهار فى دَغَلٍ بغابِ

وعبيرُها الفوّاحُ يَغْشَىَ الحِسَّ كالخَدَرِ الضَّبابى

لكنه ما انفكَّ يُذْكى فى تُرابِ الجسمِ ذراتٍ بها نارُ التُّرابِ

جَمَرَاتُ وَعْىٍ مُوقَدٍ هى فى حنايا القلب بعض لُبَابِ

فلقد نجا .. مهما أطالَ الوعىُ فى أَمَدِ العَذَابِ !

(٥)

عبثًا يحاولُ أن يُصَدّقَ أنها إِنْسيَّهْ
هل من بناتِ الأرضِ أو دنيا البشرْ
تلك التى جاءت بها أحلامُه المَنْسيَّهْ ؟
لا .. لن يحاول أن يَفِرّ الآن من أَسْرِ الصُّوَرْ
ما ضَرَّ لو أرخى زمام الوهمِ حتى ترتقى الروحُ التى بَرِئَتْ
بمعراجٍ ولو كانت مَدَارِجُه رُؤًى حِسِّيَّهْ !
أفلا يصادفُ كلُّ عاصٍ فى غِمَارِ الإِثْمِ ما
يُضْفى على أفكاره نورًا بألوانِ الرُّؤَى القُدْسيّهْ ؟
ولربما كان الخلاصُ بها من نَزْغِ شيطانٍ يُنَازِعُهُ
أو يستبدُّ بِهِ فى كُلِّ أُمْسيَّهْ !
وأراحهُ ما ظَنَّهُ فَغَفَا كَمَنْ حَمَلَتْهُ أنسام الصباح إلى

بقاعٍ فى أقاليم قَصيَّهْ

ورأى من الأحلام ما يزدادُ تحليقًا به

فأتى من النَّشوات ما كانت تلوحُ له عَصيَّهْ !

(٦)

وأفاقه صوتٌ غريبٌ ليس يدرى كُنْهَ رنّاتِهْ

كالهمس يُرْجِعَ صَوْتَ آهاتِهْ

ليس النسيمَ وإن يَكُنْ حارًا كلفحةِ شمس هاجرةٍ بلا ظلٍّ

متتابعًا كالنبض فى خفقاتِ قلبٍ مُوحِشٍ وَجِلِ

وغدا يصافح خَدَّهُ مثل الأملْ

وكأنه وَعْدُ القُبَلْ

وبه من العِطْرِ الرهيفِ شفيفُ أحلامِ الغَزَلْ !

لا لم يكن ذيّاك من فعل الخَبَلْ

بل إن صدر فتاته يحنو عليه يريد أن يَجِدَ الحياةَ

وعندما عَرَفَتْ من الأنفاسِ أن به حياهْ ،
أمرت وصيفَتَها بإعداد الطعامِ لغارقٍ يرجو النجاةَ
على يَدَىْ من ألقت الطوقَ الأخير إليه فى غَمْر المياهْ
وَتَلَقَّفَتْهُ تلقُّفَ الطيرِ الجريحِ إذا انطوى ريشُ الجناحْ
بَدَأَتْ بأن حَمَلَتْهُ ليلاً دون أن يدرى إلى
كهفٍ قريبٍ لم تَزُرْهُ الشمسُ أىّ صباحْ
وكَسَتْهُ بعضَ ثيابِ والدها الذى مَلَكَ الجزيرةَ والبِطَاحْ
صَنَعَتْ له فَرْشًا من الفَرْوِ السميكِ ومن إزارٍ أو وِشَاحْ
وقَضَتْ سحابةَ يومها ترعاهُ فى حِرْصٍ إلى وقتِ الرَّوَاحْ
لكنها رأت المساء يكاد يُنْذر بالصقيع وباشتداد يَدِ الرّياحْ
فَأَتَتْ بسترٍ عند بابِ الكهف ترجو
أن يَصُدَّ الريحَ إن هَبَّتْ ويكبح الجماحْ !
وأَتَتْ لَهُ بِبَخُورِ مِسْكٍ نافذٍ وبِصَنْدَلٍ ولُبانِ دَوْحٍ من جزيرتها-

فى علمها – تُشْفَى به الأجسادُ والأرواح !
كانت تخاف عليه أن يَلْقَى مصيرَ عَبيدِ والدها –
فَيَشْرِيهِ لشيخٍ من سُراةِ البَرّ أو يُمْسيِ من الأَقْنَانِ للمَلاّحْ !
ولذا تَكَتَّمَتْ الفتاةُ حديثَ ما قد كان هذا اليوم منها –
وكأنما ما كان هذا اليوم سرٌّ لا يُبَاحْ !
كانت ترى فى ذلك الناجى المُهَدَّمِ بعضَ غُنْمٍ خالصٍ
تخشى عليهِ الافتضاحْ
وتراهُ مِلْكَ يمينها
أَوْفَى به حَكَمُ السَّماءِ ليملأ الدنيا المراحْ !
وتراه أنسبَ ما يكونُ لحُسْنها
وهى التى ادّخرتْهُ من دُونِ المِلاَحْ !
والآن يفتحُ خائرًا أجفانَهُ
ويُجيلُ طَرْفًا حائرًا فيما يراه كمن يفيق من انتشاءِ الراحْ !

هذا المنامُ إذن تَحقّقَ فى الصباحْ !
وهما الفتاتان اللتان رآهما
بالأمسِ إن كان الزمانُ أتى وراحْ !

(٧)

ورأى الطعام على الصِّحافِ فأيقن الآن النّجاهْ !
وأحسّ بالجوع المُقَرْقِرِ صاخبًا
فى بطنه يكوى حشاهْ
لم يَدْرِ ساعَتَها بأن الجوعَ قد أنساهُ ما أنساهْ !
لم يَدْرِ إلا أن جوع البطن يدفعه إلى طلب الحياهْ
فانقضّ مثل عُقابٍ غابٍ ساغبٍ فوق الفريسهْ
وتَذَوَّقَتْ شفتاه ما صَبَّتْهُ صاحبةُ الجزيرةِ
من عصير الكَرْم فى حلْقٍ تصلَّبَ من جفافٍ وانطوت فيه اللهاهْ
شَغَلَتْهُ أصناف الطعام عن الدُّنا وعن الفتاهْ –

عن كهفه عن نفسه عن شكر من راعاه !

حتى إذا ذهب الظّما وابتلت العروقُ فيه –

وأحس أن حرارة الدَّم قد أعادتْ وَعْيَهُ

ألقى بنظرة فاحصٍ فى كل شىءٍ حَوْلَهُ

فتبيَّنَ العُشَّ الجديدْ

ورأى شعاع الشمس خارج كهفه يُلقى من الظّل المديدْ

وأحس بالنسمَّاتِ من شط الجزيرةِ بارداتٍ قادماتٍ من بعيد

وتعجبّتْ عيناه مما أشْعَلَتْهُ وصيفةُ الحسناءِ من لَهَبِ الوقودْ

فغدا يَبُثُّ ضياءه الخفّاق مثلَ النور فى صُبْحٍ وليد !

ورأى على الجدران أشباحًا تَرَاقَصُ من ظلال مُضيفَتَيْه

فتذكر الأهوال فى عُرْض المحيطِ وغضبةَ الدنيا عليْه

وتذكر الريح التى كانت تُدَمْدِمُ مثل شيطانٍ تَملَّكَ خافقَيْه

وتذكّر الأمواجَ تعلو كالجبال فكاد يَعْرُوهُ الجمودْ

وأفاقه مسُّ الأصابعِ من يدٍ بُسِطَتْ إليْه
وبدون أن يدرى تطلّع للعيون السودْ
فكأنما شهد السماء بكل عَيْنٍ صافيهْ
بسامة فينانة الأهداب كالدَّغَل المُنَمّق ساجِيهْ
لا لن يعود إلى ركوب البحر يومًا لن يعودْ !
فهنا خمائل من رُبَا الفردوسِ باسقةٌ لها طَلْعٌ نَضِيدْ !
فى هذه الخُصُلاتِ صَفْصَافٌ تَدَلَّى
فوق شط النَّحْرِ يَلْثُمُهُ ولا يرجو المزيد !
وأَحَسَّ صاحبُنا الهزيلُ بأنه كالبُكْمِ معقودُ اللسانْ
هذى سعادةُ حالمٍ والحلم فى عُلْيا الجِنَانْ !
هل عاد للأحياء فى هذا النعيم ليرتوى وَهْمًا وحسب ؟
أم أن ذاك الوهم حَقٌّ مثل خَفْق الروح فى قلب المحب ؟

(٨)

كانت فتاةُ البر شِبْهَ أميرةٍ تحيا بحلم البحر والسما
وَلَكَمْ رأت فى النوم عاشقها الذى يأتى إذا غيثٌ هَمَى
كانت تراهُ كُلَّما عَصَفَتْ رياحُ الغرب والإعصارُ يومًا زَمْزَمَا
أو كلما يبدو على الأفق البعيد خيالُ شىءٍ هائما
شابًا جسورًا دَأْبُه قَهْرُ النوازلِ بل إراقتُها دَمَا !
لكنه سمحُ المُحَيَّا باسمُ العينين معسولُ اللّمى !
لكنما هذا الذى أَلْقَتْ به الأمواجُ حين تحطّما
جعل الفتاة كمثْل أمٍّ طبعُها بذلُ الحنانِ مُرَنَّما
غَنَّتْ له فى نومِهِ ورَعَتْه من قلبٍ تغذّى أَنْعُمَا
كانت ترى فيه الجمالَ جمالَ طفلٍ كالملاك نائما
أو مثل طيرٍ أزغبٍ قد بات يرجو من يُعير قَوَادِمَا
لم تَدْرِ أنّ العطف يَغْذُو الحبَّ إن صَدَقَ العطوفُ وأكرما !

وصحا الصغير فأَدْرَكَتْ في جانب العينين شيئًا غائما
فكأنما يتكتَّمُ القلبُ الكسيرُ الحزنَ أو يشكوه دَمْعًا مُرْغَمَا
هل كانت العَبَرَاتُ إقرارًا بفضل جميلةٍ
عادت به نحو الحياةِ سالما ؟
أم كان ماءُ شئونِهِ من فيض نبع خميلةٍ
في جوف قلب لم يَزُرْهُ الحبُّ يومًا باسما ؟

(٩)

لم تمض أيام على سُكْنى الشريد بكهفِهِ -
وطعامِهِ وشرابِهِ - حتى تكلَّمْ !
سأل الفتاة عن الجزيرةِ عن سفينَتِهِ -
وكيف أتى هنا -
لكنّها كانت تطيلُ الصمتَ ناظرةً إلى فَمِهِ وَتبْسِمْ !
أما إذا حان الفِراقُ فكانت الحسناءُ تهمِسُ أو تُغَمْغِمْ

كانت تخاطبه – إذا اضطُرَّتْ – بلفظٍ ليسَ يُفْهَمْ !
ويُجيبُها بالصَّمْتِ أحيانًا وأحيانًا يُتَمْتِمْ !
وتبيّن الناجى بأنّ البحرَ ألقاهُ على شطٍّ غريب عن ديارِهْ
وبأن ريحَ الغربِ ساقَتْهُ إلى غَيْرِ مسارِهْ
لكنّ فتنةَ ثَغْرها أَنْسَتْهُ ما هو فيه من غُرْبَهْ
فرآه مرفأه الذى يأوى إليه إذا اعتَرَتْهُ لُهْبَهْ
وتَعَلَّمَ الألفاظَ يومًا بعد يومٍ فى جمال الصُّحْبَهْ
لكنه قرأ المزيد بصفحة الوجه الذى
تُنْسى بشاشَتُهُ خَبِىءَ الرَّهْبَهْ
ورأى بعين فتاته وَلَهًا بِهِ
حتى أَحَسَّ النَّبْضَ فى قلب الفتاةِ صدًى لفرحِهْ
وتعجَّبَ المسكينُ من ذاك الذى يلقاهُ منشورا –
يجوزُ حدود بَوْحِهْ –

من بسمةٍ فَيْنَانَةٍ مَسَحَتْ بقايا
كلِّ ما قد كانَ من قَرْحةْ
مما رآه بصدرها
من وَمْضِ نورٍ خافتٍ يزهو بِلَمْحةْ
هل كانت الحسناءُ تشكو فى ثنايا النفسِ
جُرْحًا ظل مستورا –
أو نافذًا كعميقِ جُرْحِهْ ؟

(١٠)

وأتى الزمان بما اشتهاه العاشقان
إذ أَبْحَرَ القرصانُ – والدها –
ليصطادَ السفائنَ (دَيْدَن القُرْصَانْ)
وخلَتْ لحبِّهما الجزيرةُ والمروجُ الخُضْر والشُّطْآنْ
كانا يُحبّانِ الغروبَ وساعةَ الشَّفَقِ الصَّقيلهْ

يتأملانِ الكونَ تحتَ ظلالِ أغصانِ الخميلهْ
والشمس تهبط فى المياه كأنها نُذُرُ النهايهْ
لكنها تَعِدُ الجميع بعودةٍ مثل البدايهْ
ورأت وصيفتُها الذى يغذو خيالَ العاشقَيْن
فأتت بقيثارٍ جميلٍ داعَبَتْهُ فضاعَفَتْ
ألحانُه من لذةٍ تَغْذُو الخيالَ بكلِّ حِينْ !
طَفِقَتْ تُغنّى من أغانى الحُبِّ ما حفِظَتْهُ
من عهد الجدود ذَوِى الطَّرَبْ
طَلَبَا إليها **الاقتضابَ** فأبحرت فى موج بحر 'مقتضب':

إن تبـــــسَّمَ القَـدَرُ
فـالمَـرَاحُ والسَّـمَـرُ
سـاعـةٌ هى العُـمُـرُ
والزَّمَـانُ يُحْـتَـضَـرُ

الحـــيـــاةُ ذاهِبَـــةٌ
كلُّ مَنْ أَتَوْا عَـبَـرُوا
كـــيف راحَ فى غَلَسٍ
أَمْـسُكَ الذى ذَكَـرُوا

كُلُّ من بِهِ نَعِـمُـــوا
قد مَضَوْا وما انتظروا
فـــاقــتطف أزاهرَهَا
واعـتـبـرْ بمن عَبَـرُوا

زهـــرةٌ بــلا فَـنَـنٍ
كلُّ مـــــا هنا زَهَرُ
يُســعـدُ الذى قَطَفَـا
يُـؤْلـمُ الـذى يَـذَرُ

هل صَـبَـرْتَ فى أَمَلٍ
حـائرًا وتَسْـتَـتِـرُ
عَلَّ يصـــدقُ الزمنُ
عَلَّ ينفـع الحَـــذَرُ

لا تُطِـلْ تَرَدُّدَكَـــا
إنْ دَنَا لَـكَ الثَّـمَــرُ
واقـتطفْ نَصِـيبَكَ منْ
كُلِّ مـا هَوَى البَـشَـرُ

فالحياةُ تَسْخَرُ مِمَّنْ
يَـظَـــلُّ يـنـتـظرُ
لا تُطِـلْ تَأَمُّلَـهَـــا
أو تَـظَـلَّ تَصْـطَـبِـرُ

واقْضِ هانئًـــا وَطَـرًا

إن أتاحــــه الدَّهَـرُ

فــالهــوى لُبَـانَتُـنَا

هل سوى الهوى وَطَرُ

(١١)

غَنَّتْ وَصيفَتُها وكان بصوتها

طربٌ فأشجى كلَّ من سَمِعا

بل هزّ أعطافَ النفوسِ فأنشدت

حب الحياة بها مَعَا

حتى إذا الدمعُ القريرُ بمقلةٍ لَمَعَا

كانَ التناغمُ دعوةَ الحبِّ الذى هَمَعَا

شَدَّ القلوب إلى القلوب فكان ما جَمَعَا !

كان المساءُ الهيكلَ الخاصّ الذى

نظر الحبيبُ به إلى شَفَقِ السماءِ برهْبَةٍ كالعابِدِينْ

والساعةُ المسحورةُ ارتفعتْ

بآفاق النفوس إلى مَرَاقٍ من يقين

فالبحر ساجٍ سَبَّحَ البارى بخشيةِ من رأى

فيه الجلالَ مجسداً للناظرين

فى كل لونٍ فاتنٍ تذكارُ ما يَفْنى من الدنيا

ليبتلعَ الظلامُ ضياءَ بَهْرَجةِ النّهارِ بكل عَيْن

ويشير للأَبَدِ الذى يحيا بلا زمنٍ وراء الكونِ

بل فوقَ الوجودِ على ثرى الأرضين

هذا الصفاءُ الخالصُ الوسنانُ من نُذُرٍ

تُذَكّر بالفناء بكل حين

ماذا وراء الظلمة العليا

سوى زمنٍ بلا زمنٍ هنالك لا يريمْ ؟

ماذا وراء اللحظة الملتاثة الحسناء من

أمل سوى

بردٍ مديدٍ مستديمْ ؟

ماذا وراء خطيئة الإنسان فى الفردوس إلا

بعضُ غفرانٍ يجود به الرحيمْ ؟

فهو الذى يُذكى بنا ضَعْفًا

(كأن الضَّعْفَ قوهْ)

ويُعيننا كى نستبينَ النُّورَ فى غَبَشِ السَّديمْ !

(١٣)

كان المساءُ الهيكلَ الخاصَّ الذى عبدا الإله بهِ

وكان الكاهنَ الخاصَّ الذى عَقَدَ القرانْ !

والبدرُ شاهدَ ليل حُبٍّ هَزَّهُ

صَحْوُ المشاعر حين يصحو العاشقان

وسباتُها حينًا إذا خَلَدَا إلى صمت الهوى يتناجيان

كانت نجومُ الليل قد بَدَأَتْ تسائلُ عند مَشْرِقِها

برعشةِ من يحاكى القلبَ فى الخفقان :

ماذا تقول عيونُ هذين المحبَّيْن اللَّذَيْن بدا

من فَرْطِ حُسْنِهِمَا مليكُ اللّيلِ معقودَ اللسان ؟

وأجابهنَّ الصوتُ فى ثِقَةٍ من كوكب الزُّهَرَهْ

(ندعوه رب الحب أجمل ما رآه المشرقان) :

إنى أنا ربُّ الغرام فَسَلْنَ ما شِئْتُنَّ سوف أجيبكُنَّ

فإنّنى ربُّ المكان !

الآنَ ساعة حُكْمَى الماضى على القلب الذى

لابد أن ينسى الزمان

وبذاك أَحْكُمُ : سوف ينسى العاشقان خُطى الزمان
ويغيبُ كل منهما عن عالمِ الأحزان
لن يعرفا إلا المباهجَ فى الوصالِ ولَذَّةَ اللُّقْيا
وقد نجدُ الشفاء الحقَّ للإنسانِ فى النسيان !
هو ذاك حالُ العاشقَيْنِ أَمَامَكُنَّ هنا –
لم يذكرا مَهْرًا ولا ذكرا عُهُودًا بالوفاءِ وبالأمان
بل لم يُحِسَّا أن فى الفردوسِ شيطانًا يريدُ غِوايةً
أو يكتسى زيًّا لثعبان !
ولقد أَزَلْتُ غَشاوة العينين حتى
تستشفَ الروحُ نبضَ الكون حيًّا خافقًا
بجمالِ قَصْدٍ أو نقاءِ معانِ !
ولقد جعلتُ الجسمَ يصفو عندمَا
بَرِئَتْ خلاياه من الأدران

ذابتْ به الروحُ التى انصهرتْ هُنَا
وجَرَتْ كما تجرى من القلب الدِّمَا
وتدورُ موغلةً بِهِ فى كل شريان
فغدا نسيجُ الجسم بِلَّوْرًا تَلألأ بالضِّيَا
فى غمرة اللُّقْيا من الذوبان
أَوْقَفَتُ عندهما الزمانْ –
فغدا الحبيبان اللذان تعانقا جسمًا وروحًا
جسميْنِ أو رُوحَيْنِ فى نفس الكيانْ !

(١٤)

لا يأخذ العشاق فى حسبانهم
أن الزمان له صُروفٌ أو غِيَرْ
لاهين بالأزهار فى بستانهم
ناسين أن الدهر قلاّبُ الصور

أو يأمنون لِنَابتٍ يخـضَـرّ فى أيْمـانِهِمْ
والذهنُ فى موجاتِ عطرِ الحبّ مكفوفُ البَصَرْ
ويُردّدونَ بنشـوةٍ مـا طاب من ألحـانهم
فى غفلةٍ عن غضبة الدنيا وتقطيب القدر

(١٥)

مضت الليالى فى انتشاء والأحبة فى انتشاء
إذ جاءت الأنباء أن الوالد القرصان ماتْ
حزن الجميع عليه حينا ثم لم يُجْدِ البكاء
عافوا تقاليد الحداد فليس يُرْجِعُهُ حِدَادْ
وتحولوا صَوْبَ الهناءِ من التباكى والعزاء
إذ كانت الحسناء وارثةً لوالدها وحيدهْ
دانت لها كل الجزيرة والأقاليم المديدهْ

والكُلُّ فى جَذَلٍ يُنَفّذ ما تراه كأنّها

ربٌّ تحكَّمَ فى الفَلَكْ

غَدَت المليكة فى الجزيرةِ

والحبيب على مليكتها مَلَكْ !

فى الصبح يُؤمر بالصَّبوح وفى المَسَا يأتى الغَبوق

والليلُ يشهد من فنون اللهو ألوانًا إلى وقت الشروق

وإذا الوصيفةُ أصبحتْ تشدو بصحبة عاشقٍ

ولهانَ لا يُخْفى هواهْ

وتقود عزفَ العازفين الحاذقينَ

لِلَحْنٍ فرحٍ ليس يبدو مُنْتهاهْ

والتابعاتُ لها يرددن القرار بصوت سِحْرٍ

راح يلغى ما عداهْ !

والغانيات يَدُرْنَ فى رقص رهيف الوقعِ

عذب الخطو تُسْكِرُهُ خطاهْ
وكأنهن يجئن بالإلهام من شيطانِ شعرٍ
ذاهلٍ عما دهاهْ
بلْ قُلْ كأنّ الحفلَ إحياءٌ
لبعض شعائرِ الأملِ المجنّحِ فى الشفاهْ
إذ أقبل الأصحاب والخلان فى صَخَبٍ
على الأقداح من خمر بِدَنّ
ولهم بقَرْعِ كئوسهم صوتٌ يطنُّ
فيسكر الأحياء من إنسٍ وجنّ
ودبيب أقدام الزمنْ ؟ عبثًا يَرِنْ !
خَفَتَ الدبيبُ فليس تسمعه أذن !

(١٦)

خَطَرَتْ لَهُ رؤيا الزمنْ

وكأنما سَمِعَ الدبيبَ وليس يَسْمَعُهُ سواه

وسَرَتْ بقلبِ الهانىء النشوانِ بعضُ مخاوفٍ

سَقَطَتْ به فَهَوَى كصقرٍ حَطَّ من عُليا سماه

فتذكر الذى قال الحكيم ولم تَزَلْ فى قلبه ذكراه

''ما طار طيرٌ وارتفعْ ، إلا كما طار وقعْ !''

فَرَنَاإلى عين الأميرة علَّهُ يلقى بها سلواه

فرأى غضونًا فى الجبين لها ظلالٌ فى الشفاه

ولربما كانت تحسُّ بما يُحسُّ ولم تكن تدرى مداه

قالت له من قبل أن ينطقْ .. ''لدينا شاعرٌ مُفْلِقْ !

''وهو الذى بالشعر سوف يطاردُ الشيطانَ فى

''نفسٍ تُراوِدُهَا الوساوسْ

"ويَزينُ بالأحلامِ دنيانا التى"
"تزهو بألوانِ اللّذائذِ والنّفائس !"
صاحتْ فجاء الشاعرُ المسكينُ يجرى حاملاً وَرَقَهْ
وبرجفةٍ كشفتْ لهم عما أثار شُجُونَهُ وقَلَقَهْ
إذ لم تكن كلُّ القوافى عندهُ (فى ظَنّهِ) لَبِقَهْ
طَفِقَ الصغيرُ على حياءٍ يرتجلْ
فى حيرةٍ بين الزِّحافِ والعِللْ :

لم يُخْلَقِ العشاقُ لِلزَّمنِ الذى
يُلقى بأهلِ الأرضِ فى الهُوّهْ
أو يسلبُ السُّعَداءَ فرحتهم بما
يقضى به فى الناس من نَبْوَهْ
فى كل رَبْعٍ من ربوع الأرض يأخذُ

مـــا حَـبَى الأحـيــاءَ من سَطْوَهْ
ويُذَكِّـرُ الفـانين أن العُـمْـرَ يُعْطَى
دون أســبـــابٍ ويُؤْخَــذُ عَنْوَهْ
هـو لا يشـيب وإنما يزداد عُنْفًــا
بـالذى يجنيــه من أهل الفُـتُــوَّهْ
أمـا إذا ترك الكبـارَ تعـيشُ عـمـرًا
سـابغًـا فـالدهر لم تأخُـذْهُ كَـبْـوَهْ
بل إنه يُغْـريهُـمُـو كـيـمـا يكابد كُلُّ
شـيخٍ فَـقْـدَ مـا قـد كـان من قُـوَّهْ
حـتى إذا أهوى به المرضُ العُـضَـالُ
تَـطَلَّـعَ المسكينُ للمـــوت الذى
يأبى القـدومَ وقـد يُجَـافِى أَىَّ جَـفْـوَهْ
المرءُ نِضْـــوُ الرحلـةِ المكدودةِ

الخـرقـاءِ فى ركب الزمـان يَخُبُّ
حـتى لو أباد الدَّهْرُ نِضْـوَهْ
دأبُ السنين على المدى فَصْمُ العُرى
قـد ضـاعَ من وَثِقَتْ يداه بأىّ عُـرْوَهْ
الدهرُ مـثل الوحشِ يَزْدَرِدُ الصـغـار
بلا حـسـابٍ للأُبُوَّةِ والبُنُوّهْ
يقـسـو عليـهم كلهم .. فـالصـابرون
يكابدون نُيُـوبَ تلك القَـسْـوَهْ
أمـا الحـصـيفُ فـإنه يصـحـو إذا
غَـفَلَ الزمـانُ ولم يَزَلْ يَزْهُو بَصـحْـوَهْ
هى فى حسابِ الدهرِ ليست غيرَ فَجْوَهْ
لكنهـا تُرضـيـهِ تُشْبِعُ بَعْضَ صَبْـوَهْ
حـتى ولو لـم تَعْـدُ مـا ندعـوه نَزْوَهْ

هى لحظةٌ يغفو الزمان بها
ويسرقُها المحبُّ فيكسبُ الدنيا بغَفْوَهْ
لم يَنْجُ من عَسْفِ الزمانِ سوى
مُحِبٍّ فاز فى لحظاتِ نَشْوَهْ
أو صارعَ الأمواجَ والأنواءَ
والأهوالَ ثم رأى النجاةَ بأىِّ نَجْوَهْ
فَسَمَا بها فوقَ الزمانِ مُؤَكِّداً
للكونِ كيف أتى سُمُوَّهْ
هَفَواتُ هذا الدهرِ نُهْزَهْ !
تدعوكَ أن تَهْنَا بزَهْوَهْ
فحذارِ من إهْمالِ دَعْوَهْ !

(١٧)

صمت الشويعر بعد أن ألقى القصيدةَ
ناظرًا أصداءَ ما ألْقَى !
هل ما أَتَتْهُ به القريحةُ يستجيبُ لما حوى قلبُ الخريدةِ
أم تراه أَخْفَقَا ؟
ورنا إلى عين التى تستأجر الشعراءَ
هل تُعطيه أجرًا سابغًا غدِقًا ؟
هل قال ما يُرضى وَلِيَّةَ نعمته ؟
ذكر القوافىَ بعضُها كان المقيَّدَ والأخيرُ كان مُطْلَقَا
ورأى من الأبياتِ ما أَرْبَى فجاوزَ حَدَّهُ
فطغىَ وجار كَسَهْمِ رامٍ زَهَقًا !
كلماتُه كانت تميل إلى الصراحةِ – لا جدالْ –
لكنّها كانت تعبّر عن مشاعرَ فى فؤادٍ طالما صدَقَا
ورنا إلى ما خال فى ضوء الشموع بَرْقا

أو قل شعاعُ الفرْحِ فى بعض المآقى ائتلقَا

لكنه دَمْعُ حزينٌ ساخنٌ تَرَقْرَقَا !

• هل كانت الحسناء فى ألمٍ ولا تُبْدى

أساها المُرَّ إشفاقًا ورِفْقَا ؟

لا تُخطئُ العينُ الدموعَ إذا جَرَتْ

أو يُخطئ الحِسُّ الوجيبَ إن تَدَفَّقَا !

ماذا اعتراها وَيْلَهُ !؟

هل قال ما يؤذى المشاعر أو يسوءُ النفس حَقّا ؟

ليستْ من الناس الغضوبَ الزَّلِقَا !

أَمَرَتْ بأن يَأْوِى الجميعُ إلى الرقاد –

هل استطابوا الأَرَقَا ؟

نهضَ الجميعُ وفى تثاقل من يغالبُ نفسه انطلقوا

لكن عاشقها المتيّم كان أسبقا !

إذ قام مثل من استثار الشعرُ فى جنبيه شيئًا لم يَرُمْهُ أبدا

بل كان ذكرُ الموجِ والأنواءِ فى تلك القصيدةِ مُقْلقَا
ففؤادُه ما زال يذكر من قَضَى سَغَبًا
على ظهرِ السفينةِ والعزيزَ المُغْرَقَا
ذكر الرفاقَ فزاده الذكرُ الأليمُ أسىً وحُزْنا
فكأن جرحَ الأمسِ ما زالتْ دماهُ تسيلُ لا تَرْقَى !
وكأنّ أقداحَ الهوى لم تُطْفِئْ النار التى
قد تَسْتَبِدُّ به وتنضو الروحَ حَرْقَا
وكأنه ما زال فى عُرض المحيط يصارع الأنواءَ
والأمواج يحلم بالنجاةِ يُجَنُّ للمرساة شوقا !
وتطلّع الناجى إلى شرق الجزيرةِ حيث تلُّ المشرق الوضّاءِ
يرجو أن يشاهد مَشْرِقا !
ومضت أميرتُه مَعَهْ
فالليلُ يوشكُ أن يُزيلَ لِثَامَهُ ويريحُ قلبًا عاشقا !

هل يشهدان هنا النهاية فى بدايات الطيوف
إذا تَبَدَّتْ شَفَقَا ؟
هل كان فى غَلَسِ الصباح نذير ما
يأتى إذا بَسَطَ المساءُ الغَسَقَا ؟
ما زال فى الليل القليلُ من النجومِ
من النسائمِ من جمالٍ يمسكُ الرَمقَا
كانا يسيران الهُوَيْنَا مثل حواءٍ وآدمَ
والقلوبُ تضجُّ فى نبضٍ سريع خَفْقَا !
كانا يخافان الغدَ المجهولَ كيفَ
ينالُ المرء منه مَوْثِقا ؟
حتى إذا بلغا مكان التل
راحا يَرْجُفَانِ فَرَقَا
هل أَغْضَبَا ربَّ السماءِ بأىِّ ذنبٍ

أو بِعِصْيانٍ لأمرٍ سَبَقَا
أم كانت الرَّجَفَاتُ من بَرْدِ السَّحَرْ
ذاك الذى هزّ الكِيانَ وشَقَّه شقّا
لم يعرفا إلا النذير بكل قلب واجفٍ !
أيقول كاد الكون أن يتفلّقَا ؟
بل خال كل منهما أن الخفوقَ بقلبه
صوتُ الجناحِ لطائرِ الأجلِ القريبِ مُصَفِّقَا !
هل كان ذلك طائر النَّحْسِ الذى
يخشى الأحبّةُ منه أن يُحلّقَا ؟
لا يعرف العشاق أسرار النُّذُرْ –
إلا إذا كان النذير الصامت المرهوب أن يفترقا !
لم يعرفا إلا علاجًا واحدًا للهامس الملعونِ
فاقتربا ووسوسةُ الفِراق تزيدُ فالتصقا !

كانت بشائر ذلك الفجر البليل تلوحُ

والوَهَجُ البعيد على التلال رائقًا

لكن قلب العشق لم يحفل سوى

بالهامس اللّصّ الذى جَدَّ الخُطى فى النفس مسترقا

وَجَدَا السكينةَ فى الرقاد فأخلدا

للنوم يطمسُ ما شكا منه الفؤادُ فأرعدا .. أو أبرقا !

(١٨)

خرج الشويعر مطرقًا من بيت صاحبة الجزيرهْ

يخشى العقاب وإن يكن فى الحق لا يدرى الجريرهْ !

لكنه شهدَ الدموعَ تسيلُ من أحداقِ كل السامعين

ورأى مظاهر رهبةِ القلبِ التى فى كل عينٍ أو جبينْ

هل أحْزَنَتْ كلماتُه قلبَ المُحبّ عن الزمانِ أو السنينْ

يروى الرواةُ بأن شاعرَنا أصابَ بشعرِهِ عينَ اليقينْ
وبأن ما أفضى بِهِ قولُ الصديقِ الصادقِ الحقِّ الأمينْ
بل لم يَزِدْ عما يخالجُ هذه الأرواحَ من قَلَقٍ دفينْ
عجبًا لماذا أجفلوا وتلفّتوا ثم انْثَنَوْا كالقانطِينْ؟
من يأمنِ الدنيا ولو ضحكتْ يكنْ غِرًا كشأنِ الغافلِينْ !

(١٩)

لكنه ما كادَ يخطُو بانكسارٍ
فى حديقةِ ذلكَ القصرِ المُنيفْ
حتى توقّفَ ذاهلاً وبدا له
أنّ الذى يلقاهُ عِفْريتٌ مُخيفْ
شبحٌ يلوحُ له هناك بزِىٍّ والدها
الذى غَرِقَتْ سفائنه ومات

أوَ ذاك مـــا تروى الرواةُ عن الذى
(فـيمـا حكَوْا وتناقلُوا) ولّى وفـات ؟

(٢٠)

هل ترجع الأموات للدنيا ؟ وقبل البعث فى يوم المعادْ ؟
أو هل يعود إلى حياة الأرض بعد الموت من ولَّى وبادْ ؟
أم ذاك وهمٌ من لدى شيطان شـعرٍ دأْبُهُ خَتْلُ العبادْ ؟
ولربما كان الذى يُغوى العيونَ ظلالُ دَوْحٍ فى الوهادْ ؟
أو علَّهُ نسجُ الخيالِ لشاعرٍ صَحِبَ الطِّلَى فَنَبَا الرُّقادْ !
ولعلّه كـابوسُ شَـرٍّ عند شطّ المَسِّ فى لَيْلِ السُّـهاد
ورأى الشويعرُ قامَة العفريتِ تعلو بل تُقاربُه بعزمٍ جاد
فَدَعَا الإله بأن يُخَلّصَ عـبدَه مما بدا خَلَلَ الرماد !

(٢١)

لكن شاعرنا تأكّد عندما بَزَغَ الضّيا .. من حَقّ ما يَخْشَى !

أفشى له نورُ النهار السرّ فانتفض الفتى.. يا شَرّ ما أَفْشَى!

لا شك فيما شاهدت بالحق عيناهْ

فالوالد المشهور يمشي نحوه لا شك في ممشاهْ !

وبِجَنْبِهِ سيفٌ شهيرٌ في مدى يُمْناهْ

والصارمُ المصقولُ ليس يُسَلُّ في ذبحٍ لشاهْ!

وعلى محياهُ الصَّرَامَهْ

وتَزِينُها مَتَهُ العمامَهْ

وبِخُفِّهِ المعروف تلمعُ كالنجومِ الغُرّ جَوْهَرَهْ

هذا الذي مَلَكَ البحارَ وسادَها كالقَسْوَرَهْ

والآن عاد بفجر يومٍ

كان فيه الناس في أصفادِ كأسٍ آسِرهْ

الآن لا يجد الذين يُرحّبون به

ويَقْضُونَ الرِّغابَ مُيَسَّرَهْ

الآن عاد فكيف عاد ؟

سرٌّ من الأسرار فى تيه الحياةِ الظافرهْ

لكنه قد عاد حقا شامخًا

قل كيف تُنْكِرُهُ عيونٌ ناظرهْ ؟

حيا مليكُ البحر شاعرنا الصغيرَ تحيةً فيها سلامْ

فمحا الهواجسَ داخلَ القلبِ الهلوعِ وحُقّ للذَّربِ الكلامْ

بدأ الحديثَ عن الجزيرةِ بالسؤالِ عن العملْ

أين الذين يصاحبونَ الفَجْرَ فى صَحَوَاتِهْ ؟

أين الذين بِجُهْدِهِمْ غَرْسُ الأملْ ؟

ماذا أصابَ الدهرَ فى سَكَرَاتِهْ ؟

هل بات ديدنُ أهلِنا رعىَ الكسلْ ؟

إنى رأيت الشط أقفر من حُماتهْ !

وقواربَ الصيدِ الجميلةَ عاطلاتْ !

وحقولَنَا الخضراءَ صفراءَ النَّوَاصِى ذابلاتْ !"

(٢٢)

صمت الشويعر لم يَجِدْ ماذا يقولُ إذا أرادَ المَطْلَعَا

بل لم يَجِدْ للشعرِ فى تلك المتاهةِ مَوْضِعَا !

وتلفّتَ المسكينُ فى عَجَبٍ كأنّ العينَ لم تُبْصِرْ

هنا من قبلُ تلك الأربُعَا

فغدا يُجيلُ الطَّرْفَ فى أرجائها

مُتَسائلاً عن صِدْقِ ما سَمِعَا وإن لَذَعَا

فأجابه صوتٌ تردد فى كهوف النفس

"حقا ما يقولُ انظر !

"لقد غدت الجزيرة بَلْقَعَا

''مضتْ الشهورُ وكُلُّ أهلِ البرّ يتخذونَ

''من دنيا الغرام مراتِعًا

''والصيفُ جاء وراحَ واللاّهون فى شغُلٍ بها

''لا صنْعًا أو زرعًا !

''أما الوريثة فهْى تُهْلِكَ من كُنُوزِ الوالدِ القُرْصانِ ما

''من شأنه أن يُهْلِكَ الأيدى وما لن يَرْجعًا !

''فهى الغريرةُ لم تَزَلْ تحيا بقلبٍ ما وَعَى

''أن الحياةَ سحابةٌ لا تُنْبِت الزَّرْعَ الجميلَ

''و ترتوى بالماء منها باسقاتٌ قد تطولُ أذْرُعًا

''إلاّ إذا جَهِدَ الفتى بالحرث والغَرْسِ الدؤوبِ

''فأنْبتَ الغُصْنَ الرطيبَ بل الثمارَ أَجْمَعًا

''أما إذا لَبىّ بحمقٍ دعوة اللّهْوِ فَلَنْ

''يَجِدَ الذى يُجْديه حتى لو هواهُ شَفَعًا !

''وهو الملومُ إذا الخزائنُ أَفْلَسَتْ بَدَنًا وروحًا أو إذا

''كان المحلّقُ فى سما الأهواء قد وَقَعَا !''

عجب الشويعر من رنين الصوت فى أعماقه

بل كان ينكر كلَّ ما سَمِعَا !

كيف استباح لنفسه صوتٌ خبيءٌ نَقْضَ ما أَغْرَى

على الصبواتِ منذُ سويعةٍ مَرَّتْ .. وللفَرْحِ العميمِ دَعَا ؟

أهو الولاءُ لمن رَعَتْهُ وأكرَمَتْ مثواهُ لَمْ

يَقْدِرْ على خوفٍ بسيفِ الوالدِ المهتاجِ قد لَمَعَا ؟

أم أنّ ما كان الولاءُ يحثُّهُ

للرُّعْبِ من هَوْلِ الحِمامِ خَضَعَا ؟

أم أنه يَرْجُو مكافأةً تجيءُ إذا استبانَ الحقُّ

هل يبدو الرَّجَا طَمَعَا ؟

وأحَسَّ بالصمتِ العميقِ بكل أرجاءِ الجزيرةِ مُفْزِعَا

فالريحُ قد سَكَنَتْ هنا والبحرُ ساجٍ والطيورُ ذاهلةْ

والناسُ كانوا فى المخادعِ هُجَّعَا

ولربّما كان الصغيرُ كذاك يرجو مَخْدَعَا

لكنّ ذاك الخاطرَ المحمومَ فى أعماقِهِ

لم يَخْفِضْ الصوتَ الرهيبَ ولم يَشَأْ أن يُقْلِعَا

ورنا الشُّوَيْعرُ حيثُ كان الشرقُ وهّاجًا

ونجمُ الصبحِ يبدو ساطعًا

وكأنما يدعوه – دون تردّدٍ – أن يَشْرعَا !

وكأنما من شأن ربّ الشّعْرِ ألا يَخْدَعَا !

(٢٣)

ودعاهُ نجمُ الصُّبْحِ للإفضاءِ فانْطَلَقَ الفَتَى

يُفْضِى ويذكرُ كلَّ ما استَخْفَى وما قد ذاعا

ومضى يقولُ ويكشفُ المستورَ ممّا كانَ أو

ما ظَلّ عند الناسِ سرًا شَاعَا

وقد انتقى من بارعِ الألفاظِ ما لَمْ يَتْرَ فيهِ بلْ انثنَى

يحكى من القصص التى انطلقتْ سراعًا ما أصابَ

فؤادَ صاحبِنا بهمِّ النفسِ أو رَاعَا !

بل واستمر كسيلِ سَفْحٍ طَمَّ حتى

ما تخالُ له انقطاعًا !

هل كانَ نورُ الصُّبْحِ شانئَهُ الذى قد خَانَهُ ؟

أم كانَ سُهْدُ اللَّيْلِ قد شَحَذَ اليَرَاعَا ؟

هل كان ذاك تهوّرًا ؟

أم كانَ قلبُ الغرِّ إن صَدَقَ الرواةُ شُجَاعَا ؟

واهًا لشيخِ البحرِ مما صَكَّ مَسْمَعَهُ ولَمْ

يملكْ له إلا سَمَاعَا !

فكأنه ما زال فى بَحْر الظلامِ

يُجَالدُ الأنواء لا يَطوى شِراعا !

وكأنه ما زالَ فى غَيْظٍ يرومُ الفَتْكَ إلا أنه

قد كان أطولَ من بَرَى الخلاقُ بَاعَا !

أَمَرَ الغلامَ بأنْ يقودَ خُطاه للعُشّ الذى

نشد الحبيبان الفِرارَ إليه أو طَلَبا امتناعا

وتَسَمرٌ المسكينُ فى هلَعٍ بوقفةِ حائرٍ

كم كان يرجو لو مضى فأطاعا

لكنه لم يدر أين العاشقانْ -

والجَهْلُ ضَيَّعَ صوتَه فيما أَضَاعَا

ورأى حُشودَ الجُنْدِ عِنْدَ الشّطِّ

تُهرع نحوهُ فى لَهْفَةٍ فالتاعَا

وأَتَتْهُ نَخْسَةُ سيفِ صاحِبِهِ التى

أَمَرَتْهُ أن ينصاعَ فانصاعا !

ومشى يُهَرْولُ والمنايا خَلْفَهُ

هذا الذى بالهَوْلِ قد كَشَفَ القِنَاعَا

لم يُبْق رَكْضُ الحارسين حِيالَه إلا الشعورَ

بأن تلك النفس قد ذَهَبَتْ لِمَاعَا !

(٢٤)

صَحَتْ الطبيعةُ عندما سَطَعَ النهارُ

وعادت الأرواحُ للأحياء

وبدا ضياءُ الشمس من خَلَلِ السحابِ

بشيرَ يومٍ هانئٍ ورُوَاء

فالصيف قد ولّى وخَفَّ القَيْظُ

بل حَلّ الخريفُ بأجمل الأَجْواء

لكنه سرعان ما حَمَلَتْ رياحُ الغَرْبِ

إعصارًا كمِثْلِ غَمَامَةٍ عمياء

وارْبَدَّ وجهُ الأرضِ عند هُبُوب ريحٍ عاصفٍ

جَنِفٍ يعكّر صفحة الغبراء

وتَطَايَرَتْ أوراقُ أشجارِ الخريفِ كأنما

تجرى بِذُعْرٍ من أذى الهَوْجَاء

فالعاصفُ العربيدُ يبدو مثل رُوحٍ ساخطٍ

يُودى بكل سكينةٍ وصفاء

ويُثير نَقْعًا بالبطاحِ وعِثْيَرًا

يعلو بدوّاماتِ أعمدةِ الهواء

حَجَبَتْ غَمَامَتُهُ ضياء الشمس حينًا

ثُمّ لم تلبثْ - كما يبدو بغيرِ عناءٍ -

أن أَفْرَغَتْ فى الجَوِّ ذَرَّ هَبَاء

وعلا صَرِيرُ الريح مثل فحيحِ صِلٍّ

غاضبٍ أو مثل صوتِ عُواء

أو مثل شيطانٍ تطاولَ للسَّمَا

فانحطّ مرجوماً من العَلْياء

وتململ النُّوّام فى أحلامهمْ

لم تَصْمُدِ الأجفانُ للأضواء !

وتحرّكت مُقَلُ الذين هَوَتْ بهم عند الهزيعِ

أطايبُ اللَّذّاتِ كالأرْزَاء

نهضوا كأنّ العَزْمَ فيهمْ مُنْهَكٌ

من شِدَّةِ الإشباعِ للأهواء

هذا الذى كانوا يَرَوْنَ به الدواءَ إذا بِهِ

داءٌ بِهِ أَلَمٌ كأقسى ما يكونُ بِدَاءِ

كانوا يُرَجُّون الصفاءَ بضَحوةٍ

فأباد صِرُّ الريح كُلَّ رجاء

قالوا لقد بكر الشتاء إلى الجزيرة مثلما

لم يأتها من قبل أى شتاء

وأحس بعضُ الناس أن صَرِيرَ عاصفةِ السَّمَاءِ

نذيرُ سُخْطٍ من ملائكة السماء !

أما فراشُ العاشقَيْن فكان فى الكهفِ القديمِ

وظَلَّ فى منأىً عن الأنْواء

يتقلبانِ على مِهادِ الأرض فى أحضانِ حُبِّهما وفى

شُغُلٍ عن الأحياء

وبقلب كل منهما نورٌ عجيبٌ غامرٌ

قَهَرَ الظّلالَ بهذه الظَّلْماء

لم تَقْربِ الشمسُ المكانَ كأنّها عَمْدًا

تَزاوَرُ عنه صُبْحًا بل وكُلَّ مساء !

كانا كمعجزة الإله أتاهما ربُّ الوجود

بناطقِ الآلاء

كانا أمام الله زَوْجَيْنِ استطابا العَيْشَ

فى أحلى رِضىً ورِفاء

وأمام كُلِّ الناسِ ما فَعَلاَ سوى

ما يَعْهَدُ الإنسانُ فى النُّبَلاء

لم يشغلْ الزمنُ العقيمُ خيالَ أىٍّ منهما -

ما قد يكونُ غَدًا من الإقواء

فالجنة الموعودةُ اكتملتْ وكان كَمَالُها

فى كُلِّ لحظةِ فَرْحةٍ وهَنَاء

وتَلَفَّتا ثم استفاقا عندما

سَمِعَا دبيبًا عَالِيَ الأصداء

لم يُبْديا ذُعْرًا ولكنْ صحوة بَرَقَتْ

فَوَشَتْ بكل عزيمة ومَضَاء

جاء النذيرُ إليهما يُقْضى بما

قد ذاع عند الناس من أنْبَاء

كانت وصيفتُها الهلوعُ تُحِسُّ بالخَطَرِ الذى

يعنيه مقدمُ والدِ الحسناء

فأَتَتْ لتنذرَ صاحبيها قَبْلَ أن

يَقَعَ المُقَدَّرُ من أذى الغُلَوَاء

وهناك عند الباب ظَلّوا فى انتظار القادمينَ

يُقَلِّبونَ الطَّرْفَ فى العَفْراء

حتّى إذا انْتَصَفَ النهار أَتَوْا فكان

الهمُّ والغَمُّ الذى يُحكى بكل سَقِيفَةٍ وفضاء

قبضوا على المسكين بعد تصارعٍ مُرٍّ وعَسْفٍ جامحٍ

فكأنما كان المُحِبُّ مجالدًا لقضاء

أَنْجَتْهُ من بَرْدِ الفناء شجاعة فى قلبها

كتبت له كالعَصْفِ ظل بقاء

كانتْ ستَفْديهِ وتَفْنَى عندها

لكنّما ليسَ الرَّدَى بفِداء

نقلوه نحو الشَّطِّ ثُمّ رَمَوْهُ فى بعض السفائن

كىْ يباعَ لمن يَرُومُ مُقَارِبًا لفَنَاء

أما الحبيبةُ فهى فى حِضْنِ الحِمَامِ

صريعة الصدماتِ والسكراتِ والإعياء

نُقلَتْ وكانت شبهَ مغشىٍّ عليها لا تُحرّكُ ساكنًا

والرعبُ لاحَ بعينها النجلاء

حتى إذا جاءت إلى البيتِ القديمِ هَوَتْ بِهِ

والجسمُ محمومٌ يكابدُ شدةَ البُرَحَاء

سَقَطَتْ صريعةً بعضِ داءٍ هَدَّها

فى النفس واستولى على الأعضاء

ذَبُلَتْ وغَاضَ اللونُ من خَدِّ الجميلةِ مثلما

تذوى زهور خَميلةٍ فَيْحاء
لم يَعْرِفِ الحكماءُ سرَّ ذبولها
أو كيف تهذى الآن كالبُلَهَاء
قال الجميع بأن ذاك الداء شيطان تملّك روحَها
بل ما له – فى طِبِّهم – بشفاء !
فَقَدَتْ نُهاها ثم هَبَّتْ فى جُنُونٍ ذاتَ يومٍ
تصرُخُ الصَّرَخاتِ للأصداء
وهَوَتْ تُغَمْغِمُ أنْ دعونى أستريحُ
فكُلُّكُمْ فى الحق كالأعداء !
كانت تَمُرُّ بها الليالى لا تريدُ لها انتهاءً
مثل غارقةٍ ببحرٍ هائجٍ .. لكنها لم تَرْجُ أى نجاء !
وتعجّبَ الأصحابُ حين أفاقتْ الحسناءُ
فى عُمْق الدُّجَى تدعو الإله بِلَيْلَةٍ ليلاء
كانت كَمَنْ يدرى بأنّ حياتَه ذَهَبَتْ

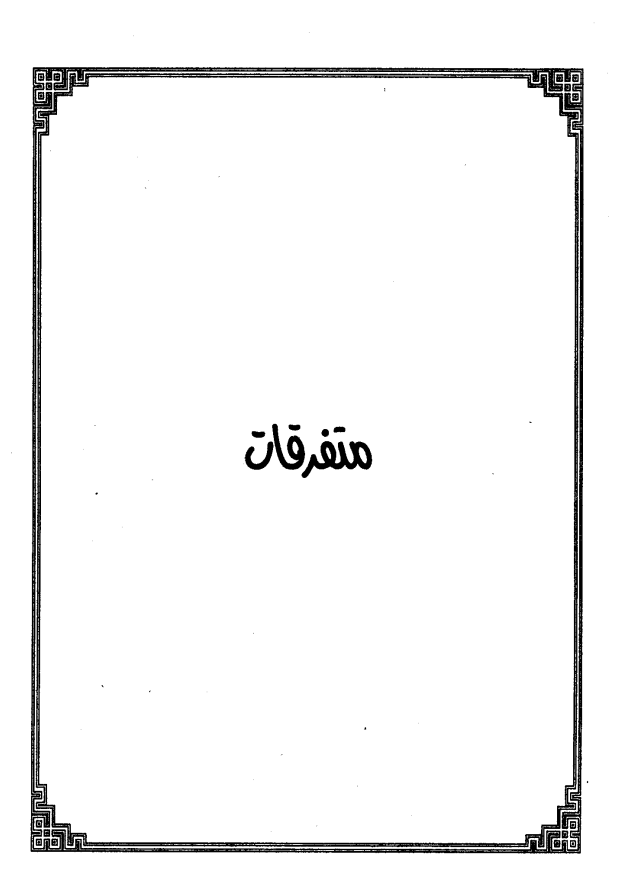
مع الناجى الجريح وما لها بثُوَاء
حتى إذا اعترض الشَّجَا عِرقَ الحياة فَسَدَّهُ
لَحقَتْ ببارئها بخاتمة الدعاء
طُوِيَتْ صحائفُها وغابَ بريقُها
ونعى الجميع بها الهناءَ وروحَ خَيْرِ وفاء
فقدوا معانىَ كل ما انتصرت له
فى وجه دهرٍ عابسِ الأرزاء
لم يَبْقَ للدُّنيا مذاقٌ بعدَها
بل لا حياةَ لكل من يَحْيَا بغير وفاء
هَجَرَ الجزيرةَ أهلُها .. والآن أَقْفَرَتْ الرُّبَا
ومَضَتْ حياةُ الناسِ والأحياء
لم يَبْقَ إلاّ الريح تَصْفِرُ فى الصباحِ
وتَلْتَوِى ألمًا بكل مساء
حتىّ هديرُ البَحْرِ بُحَّ كأنّه
رجعٌ لصرخةِ هذه الحسناء !

ختام الراوى

هذى نهايةُ قِصّتى مِنْ بَعْدِ أنْ شَغَلَتْ مساءكم الرزينْ
تَخْفىَ بها بعضُ الدروسِ عن العيونِ وبضعةٌ أخرى تَبينْ
لكننى لن أستفيضَ فقد أَطَلْتُ وهَدّ خَاطِرِىَ الحنينْ
عَبَثًا أقول بأننى أَجِدُ المبرّرَ كافيًا للعاشقينْ
أو للأبِ القُرْصانِ حينَ مَحَا هناء الهانئين الناعمينْ
والحقُّ إنّى حائرٌ من ذا أُبَرِّئُ رَاحَتَيْهِ ومن أُدينْ
لَمْ آلُ جُهْدًا فى رِوَايةِ كُلِّ حقٍّ والزّمانُ بِهِ ضَنَينْ
إن كنتُ قد أَغْفَلْتُ شيئًا من جِراحِ شواطئِ البحر الحَزينْ

فـلأنني زُرْتُ الجـزيرةَ بَعْـدَهَا وعَـرَفْتُ مـا يعنى الأنينْ
البـرُّ أَجْـدَبَ والزمــانُ ذَوَى بِهِ والبــحـرُ قــاسٍ لا يَلينْ
ولقد رَكِبْتُ البحـرَ ثم رَجَعْتُ منتصراً ومرفـوعَ الجبينْ
لكنّنى ما إنْ ذكرتُ جزيرتى حتى جَرَى دَمْعِى السَّخِينْ
فَلْنَطْوِ صَــفْــحــتَنَا إذنْ ولنَرْجُ سُلوانَ السِّنينْ

انتهت



متفرقات

لون الغد

صَمَتَتْ حتى تَطْمِسَ لونَ الغَد !
قالتْ لن تَلْقَى إلا الصَّد
حتى تغتربَ الدُّنيا فَتَراها عن بُعْد
وحشةَ هَجْرٍ وكهوفٍ وظلامٍ تمتد
لا نأمةَ فيها
لا يسكنُها أَيُّ أَحَدْ
حتى الخُفّاشُ الطائرُ بِرَنينِ الصوْتْ
وكذلكَ أنْتْ
حين يسودُ الصمْتْ
فتحارُ بليلٍ لُجّيٍّ الظلماتِ كريهِ السمْتْ

وستعرفُ أنَّكَ أخطأْتْ

حينَ قَطَعْتَ حبالَ المَنْطقِ ما بين القَلْبَيْنِ

فلم يَبْقَ سوى أنْ تَهبِطَ

فى جُبِّ الصَّمْتِ الأَسْوَدْ

لونِ العَيْشِ بلا غَدْ !

وأجبتُ أنا أعرفُ يا فاتِنَتى مَعْنىً آخرَ للصمْتْ -

فأنا بالصَّمْتِ أُطِلُّ على ما بَعْدَ الأصواتِ

على مَعْنَى الحَرَكَةِ والجَيْشَانِ المُقتاتِ

بِزَيْفِ الخَلْطِ وزَخْرَفَةِ الأشكالِ وخَبْلِ الحَرَكَاتْ !

إنّا لا نَنْظُرُ فى داخلنا حتى ندركَ هذا المعنى

إلا حينَ نرى فى الصمتِ حياةً بعدَ حياةِ الحِسّ

نُبْحرُ فيها فى ظُلُماتِ النَّفْسِ

لِنَنْجُوَ من صَخَبٍ كالمَسّ !

فالدنيا أصواتٌ مختلطهْ
تتلاقى فى صَمْتٍ ثم تذوبُ وتتلاشى مُفْتَرِقَهْ
لكنّا لا نعرفُ زَيْفَ الأصواتِ الزاعقة المُلْتَاثَهْ
إلا حينَ يزولُ صَدَاهَا ويسودُ الصمْتْ !

*

الدنيا أصواتٌ تحيا فى كل كِيَانْ
موجاتٌ سابحةٌ داخلَ نفسِ الإنسانْ
هى كالجَيَشَانْ
تعلو أو تَهْبِطْ
تَنْهَضُ أو تَسْقُطْ
لكنْ لا تتوقّفُ أبداً
لا يعرفُها إلا مَنْ يعرفُ معنى الصَّمْتِ المُطْلَقْ
إذ يَتَروَّىَ أو يَتَمهَّلُ أو يَتَوَقَّفْ

عن جَرْيٍ ولُهَاثٍ أَحْمَقْ
يَخْلُبُ أفئدةً بالرَّوْنَقْ
وبِكُلِّ جميلٍ وبكلّ مُنَمّقْ
لكنّا نَنْسَى ما فى رَنّاتِ النَّشْوَةِ من قَسْوَهْ
إلا حين يُراد لها أن تَسْكُتَ
ويسودَ الصمْتْ !

*

كم نخدعُ أنفسنا بدبيبٍ تحملُهُ أنفاسُ الإنْسْ
ونسائمُ فى صُبحٍ جَيّاشِ النَّفْسْ
يُعْلِنُ عن مَقْدمِه بدُعَاءِ الكَرَوَانْ
أو صَوْتٍ رنّانْ
وصياحِ دُيوكٍ تعلن مولدَ أصواتٍ أخرى
تكراراً للجَلَبَةِ بالأمسْ

حتى يأتى الليل الأمْلَسْ

وبأصوات أخرى يَتَعَسَّسْ

يخدعُ آذانَ الناسِ بأصوات حياة تَتَنَفَّسْ

مولد طفلٍ يبكى بصراخٍ مُتَقَطِّعْ

ثم يموتُ الليلُ ويولدُ صبحٌ آخرْ

فيكررُ ما جاءَ وأَقْلَعْ

ويوارى الناسُ بأعلى الأصواتْ

شيخًا يمضى وَحْدَهْ

والأنّاتُ تحيطُ بموكبِهِ الماضى للصَّمْتِ الأبَدِىّ

حيثُ تُعَطَّلُ كُلُّ الأصْوَاتْ .. حَتّى الهَمْسْ

ويسودُ اليأس !

*

من يَحْيَا فى الأصواتِ سَيَحْيَا فى الحاضرِ

والحاضرُ لا يَلْبَثُ أن يُصْبِحَ أمْسْ

إذ تَحْمِلُهُ الأصواتُ على أَمْوَاجٍ

مُتَسَارِعَةٍ يتخبَّطُها الشيطانُ من المَسّ

تعلو لحظاتٍ ثم تَهِسّ

والسُّرْعَةُ حُمىّ فى لون النار بلا قَبْس

بل فى لون الورد الذابل فى رَمْسْ

ولذا فأنا أَنْبُو عن لَوْنِ الوَرْد

لا أعرفُ إلاّ لونَ الغَدْ

لونَ الوعْدْ

فالوعدُ غَدٌ يَتَجدَّدْ

والوعدُ زَمَانٌ مَمْدُودٌ يتخطىّ المَوْتْ

يُورِقُ أبداً فى الصَّمْتْ

يتجاوزُ ضَجَّةَ أصواتِ الدُّنْيا لِسُكُونِ الخُلْد

قد تَخْدَعُنى الأصْدَاءُ إذا رَنَّتْ بتناغمِ أفلاكٍ عُلْيَا

تعلو أو تخفُتْ

قد يُسمعُ فيها الصوتُ وقد يَهْمُتْ

لكنّ الصمتَ محالٌ أن يَبْرَدْ

حتىّ إن وَهَنَتْ خفقاتُ القَلْبْ

وتوارى ما نَلْقَاهُ من الحُبّ

فلدينا من نَبْعِ الصَّمْتِ مَعِينٌ لا يَنْضَبْ

ابتعدى أو فاقتربى وابتعدى

فَأَنَا أَثْبُتُ كالطَّوْدْ

ولأنى أَحْيَا فى الغَدْ

أشهدُ شَفَقَ الفَجْرِ بكلّ زمانٍ ومكانْ

وبرُوحى نورُ يتردّدْ

نورُ الصَّمْتِ المتجددْ

فأرى الظُّلْمَةَ تَتَبدّدْ

حتى لو غَمَرَتْ كلَّ الناسِ وأحلامَ الإنْسَانْ !

غَضِبَتْ

غضبت

فألقت فوق ليل الصيف سترا

كاللثام

وتجمدت أنفاسه

وأناخ عبءٌ من سقام

وتوقف الركب القريب

بلا حداة أو زمام

وتفرق العشاق فى دَهَشٍ يطول بلا كلام

وتشتتت ألحانهم

شرراً يطنُّ بلا ضرام

وتجمعت مثل الرماد

إذا ارتمى فوق الرغام

وتصاعدت أشجانهم

ألمًا يئن من الأوام

وعلى الجباه تفصّد العرق الغزيرُ

كأنه وَدْق الغمام

حتى طيور الليل باتت ذاهلاتٍ

أَنْسِيَتْ دنيا الأنام

وبدت على الدوح البعيد

ترود أشباح الظلام

فالليل أمسى غابة سكرى

من الأوهام

وأنا أبيت كأنني الملتاث

من غوْل المُدام

أو قل كأني الراكب المنبتُّ لا أرضًا قطعتُ -

ولا ورائي أو أمامي !

غضبت عليّ إذنْ

أم هذه رؤيا منام ؟

أغنية

ما الذى أحْيَتْهُ تلك الشاعرهْ
فى رمادِ اليومِ عندَ الشّفَقِ ؟
فى غضونٍ وندوبٍ غائرهْ
وظلالِ الشّيْبِ عند المَفْرِقِ ؟

ما الذى أحْيَتْهُ تلك القاهرهْ
فى حَنَايا الصَّدرِ والقلبِ الهَرِمْ
شَقْشَقَاتٌ ولحونٌ طائرهْ
تبعثُ النّشوةَ فيها والألَمْ

ما الذى أَحْيَتْهُ تلك الآسرهْ
بفؤادٍ كاد أن ينسى الشبابْ
همساتٌ مثلُ مُزْنٍ عابرهْ
تسكبُ القَطْرَ بوادٍ من سَرَابْ

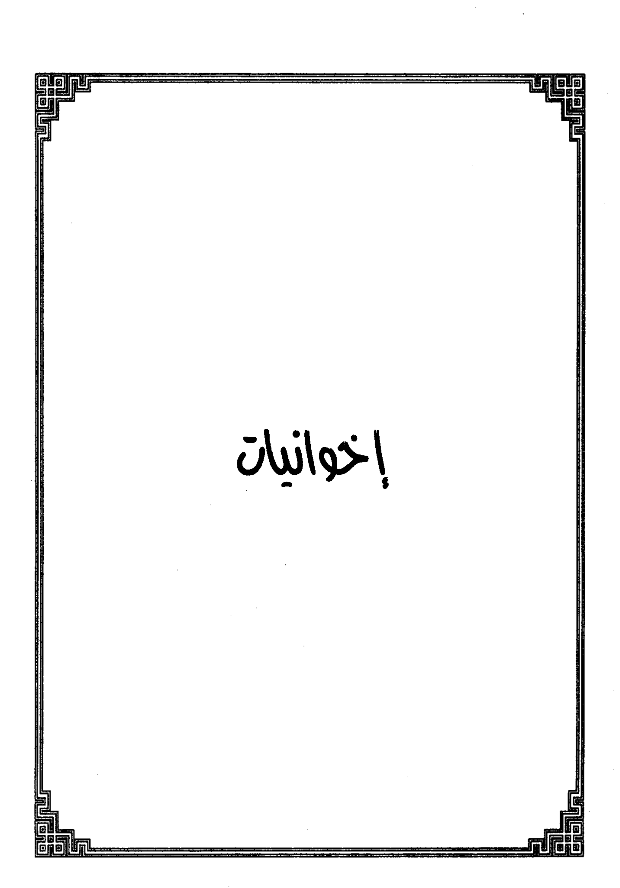
ما الذى أَحْيَتْهُ تلك الساحرهْ
فى بناءٍ من حُطامِ الذكرياتْ
أَلْقَتْ الروحَ عليه سافِرَهْ
فإذا ما فاتَ يَغْدو مثلَ آتْ

ما الذى أَحْيَتْهُ تلك الثائرهْ
فى كيانٍ ذَلّ دَهْرًا واستكان
كلماتٌ وحروفٌ فائرهْ
خَلَطَتْ كالسِّحْرِ أطرافَ الزمانْ

فـإذا اللهـفَـةُ فـيـهِ كـاسـرهْ
وإذا القَـسْـوةُ فـيـه كـالحنانْ
وإذا الشـوقُ ليـالٍ سـاهـرهْ
وإذا الفَـجْـرُ ذؤاباتُ جُـمـانْ

أَصْـبَـحَتْ ناهيـةً أو آمِـرهْ
تمْلكُ الناسَ وأرجـاءَ المكانْ
وغَـدَتْ دُنْيـا خَـيَـالٍ عـامـرهْ
بطُيـوفٍ راقـصـاتٍ من جِنَانْ

من جنـانٍ ورياضٍ ناضـــرهْ
زاخـراتٍ بزهورٍ وحـســانْ
وأهــازيـجَ ربـيـعٍ بـاهــرهْ
وبأوتـارٍ ورنـاتِ مَـــثَـــانْ



إخوانيات

إلى ماهر شفيق فريد

سَئِمْتَ لَغْوَ الليالِ فاحتجبتَ أسىً

ورُمْتَ فِكْرًا صَمُوتًا فى الأضَابِيرِ

وعِفْتَ جَهْل البَرَايَا فاعْتَزَلْتَهُمو

تُصَبِّرُ النَّفْسَ عِلْمًا أىَّ تَصْبِيرِ

تعيشُ كالرّاهبِ الهانِى بِمَكْمَنِهِ

لا يَطْلُبُ المالَ أو يَسْعَى لِتَدْبِيرِ

أراكَ تعبرُ رؤيًا أنْطَقَتْ وَتَرًا

فى مِزْهَرِ القلبِ يومًا كُلَّ تَعْبِيرِ

رؤيَا الأديبِ الأريبِ المُنْزَوِى شَجَنًا

بالعِلْمِ يُذْكِى حِجَاهُ أو بِتَحْبِيرِ

فاسمعْ مَقَالِيَ أَنْصِتْ قد صَدَقْتُ أخي

والنصحُ أُسْدِيهِ صِرْفًا دُونَ تَشْبِيرِ

إنا نَعِيشُ بِعَصْرٍ سَادَهُ خَلْطُ

من الطَّنِينِ ومن لَذْعِ الزَّنَابيرِ

تَصُكُّ آذانَنَا من كُلِّ نابيةٍ

من الكلامِ ومن هَذْرِ الهَوَابِيرِ

فَصُمَّ أُذْنًا تَأَذَّتْ بالذى سَمِعَتْ

أو فاوْعَهُ دونَ تَهْويلٍ وَتكْبِيرِ

وقِسْ مَدَاهُ بِمِسْبَارِ الرَّشَادِ هُنَا

إن الرشّادَ لنا خَيْرُ المَسَابِيرِ

إلى ماهر البطوطي

دار الزمـــانُ فـــدارتْ دورةُ القَـــدَرِ

وأقـفـرَ الســاحُ من زَرْعٍ ومن بَشَـرِ

وأرعدَ الرَّعْد في جَوْفِ المساء ضُحىً

وباتَ يَهْـــزِمُ فى غَـــيْمٍ بلا مَطَرِ

كـأنما كـان يسـتـجدى الدمـوعَ أسىً

لصـاحبٍ هَجَـرَتْهُ سـاعـةُ السَّمَـرِ

العُـمْـرُ يـهـرُبُ منّا بعـدمـا انْفَـرَطَتْ

حـبـاتُ عـقـد زمـانٍ كـان كـالدُّرَرِ

فـالصَّـحْبُ فى شُـغُلٍ عنّى تَجَـاذَبُهُمْ

دنيـا الكفـاحِ ودنيـا السّعـدِ والظّفَـرِ

فبعضُهمْ هانئٌ يزهو بمنْصِبِهِ

رأسًا لشِرْذِمَةٍ فى مَوْكِبِ الخَطَرِ

يرجو لبيضِ الليالى أن تدومَ لَهُ

وأن يدومَ ضِرامُ النارِ والشَّرَرِ

والبعضُ يَقبلُ ما يأتى النهارُ به

ولا يُفَرّقُ بين الجِدِّ والهَذَرِ

وراضيًا بصروفِ الدّهْر منتشيًا

بكل شىءٍ بلا فِكْرٍ ولا حَذَرِ

كأنما أَمِنَ الأيامَ صَوْلَتَها

وغافلاً عن خبايا النفسِ والنُّذُرِ

والبعضُ فرّ إلى الدنيا الجديدةِ حيـ

ـثُ العلمُ والمالُ والإبداعُ فى الفِكَرِ

يحنُّ شـوقًـا إلى مـاض أُحـيطَ بِهِ

وناسـجًـا لخـيـوطِ الوهـمِ والصُّـوَرِ

يظنُّ أن الليـالى قــد تعــودُ إذا

عـادَتْ له لمحـاتُ السَّـمْعِ والبَـصَـرِ

فــعــادَ فى أملٍ يســتنطقُ الدنيــا

وباحثًا فى الزَّوايا عن صِبَا العُصُرِ

فى كل دَرْبٍ يرى ذكـرىً يُسَـائلهـا

تلوحُ فى كُلِّ مــهــزومٍ ومُنْتَـصِــرِ

على المقاهى يرى أشبـاحَ من رَحَلوا

ومن يرى ظلَّه فى أَرْذَلِ العُــمُـــرِ

يُعَلِّلُ النفسَ بالأحْـــلاَمِ فى غَلَسٍ

وَيَنْشُدُ الوهمَ فى الآصَـالِ والسَّـحَـرِ

*

يا صاحِ أنت أنا فى التّيهِ نضربُ كالسـ
ـارى تَخَـاطَفُـهُ رؤى بهـا يَسْـرِى

قـد تخـتـفى لمحـةٌ وتلوحُ سـانحـةٌ
لكنهـا كـسـرابِ دافقِ السّـحْـر

كيفَ النجاءُ وشمسُ الظُّهْرِ ساطعةٌ
تُحـيلُ قَـفْـرًا عُـيـونًا قُـرّةً تجـرِى

أَخْشىَ صـديقىَ أن نُصَبِّرَ مـا نرى
مـــاءً يطيبُ فَنَرْوَى دون أن نَدْرِى

هلاّ نصـدّقُ أن مـا قـد فـاتَ فـاتَ ولا
يَبْقى من الزَّمَنِ الماضى سوى العِطْرِ

فـاشْـمُمْ عطورًا فى الحنايا علَّهـا
تُنْجِى كـهولَتَنا من وَحْشَـةِ القَـفْـرِ

ماهر البطوطي

حـــائرٌ بَيْنَ عـــالمَيَنْ
لم يَزَلْ نَاشِـــرَ الشِّـــراعْ
مـاضِـيًـا دُونَمـا مَـلاَلْ
لم يزَلْ مُـشْـرعَ اليَـراعْ

لا يـروعُ الــذى يُــرَاعْ

عــازفٌ لحنَ مَـقْطَعَـيْن
من صَبَـا الحُـزْنِ والعَـجَمْ
قلبُــه يعــشقُ الصَّـبَـا

أُذْنُهْ تَعْـــشَقُ العَـــجَمْ

والفَـصِـيحَ الذى انْعَـجَمْ

رحلةُ الصـيفِ والشِّـتَـا
جَـــعَلَتْ منه سِنْدبَادْ
يَطْلُبُ الغَـابِرَ البَـعـيـد
والزمـــانُ انقــضى وبَادْ

فى الفـيـافى وفى البَـوَادْ

كُلُّنا أنتَ مَـــــاهـرٌ
نَنْشُدُ الجَـمْـرَ فى الرَّمَـادْ
وشَـــبَـــابًا بنا تَـوَلّى

وحــيــاةً بِذَا الجَــمَــادْ

والزمـــانُ انحنَى ومَـــادْ

كلُّنــا يُـنكـرُ الـسّـنـينْ
خـــافِتَ الشَّـــدْوِ والأنينْ
لحظـاتٌ مـن الهـــــوى
شـــاحــبــاتٌ فـــلا تَبِينْ

كُـلُّـنــا هــدَّهُ الحــنــين

أبو همام

لم يُعهد الصدقُ من فَمٍ مَدَحَا

أو يُعرف الحقُّ عند من قَدَحَا

لكنّ هذا الذى يجوبُ بنا

تيهَ الفَيَافِى سَمَا وما بَرِحا

فى قلبه ملهمٌ يكلّمنا

يَصْدُقُنا غامَ الحقُّ أو وَضَحَا

لا يعرفُ المَيْنَ أو يهادنه

فكل كِذْبٍ هَوى أو انْفَضَحا

كـــــــأنـه راحـلٌ بـلا كـلـلٍ

يجـوبُ عُـرْضَ الفـلاةِ مُنجـرحـا

أو قُلْ كـمـاءٍ جَـرَتْ مـشـاربُه

صـفـوًا وتَرْوِى الظّمـاءَ مـا سَنَحَـا

وإن لَـحَـــــــاهُ الـذى لـه وطـرٌ

لم يكتـرثْ .. ضـاعَ من بَغَى فَلَحَـا

فـالشـعـرُ صِدْقٌ سـمـا به فَـهَمَى

كـالغـيثِ فَـوْقَ الرُّبا قـد انْسَـرَحَـا

والشـعــرُ فى روحِــهِ لُبَــابُ نُهىً

بل نفـحـةٌ قـد سَـمَتْ بِمَنْ نَفَـحَـا

وصـــــوتُـهُ دافـقٌ يـخـــــالطُه

صـدقُ الهـوى إن حُـزْنًا وإن فَـرَحَـا

وعـــينُه عْينُ البـــاز إن لَمَـــحَتْ

نقـيـصــةً لم يَفُـتْـه مـا لَمَـحَـا

وقلبُـــه قلبُ بلبلٍ صَـــــدَحَتْ

أنغـامُـه فـانتـشى بما صَـدَحَـا

غَنّى أبو همـــامَ اللحـــونَ دَمًـــا

كـالطيـرِ يشـدو لنا وإن جُـرِحَـا

أعمال إبداعية منشورة

ميـــت حـــلاوة * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٢ ونشرت عام ١٩٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٤ .

السجين والسجان * (أربع مسرحيات من فصل واحد) - الطبعة الأولى - ١٩٨٠ - هيئة الكتاب الطبعة الثانية ١٩٩٤ - هيئة الكتاب .

البـــر الغـــربـــى * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٦٣ ونشرت ١٩٨٥ - هيئة الكتاب .

المجـــــاذيب * (مسرحية) قدمت على المسرح ١٩٨٣ ونشرت ١٩٨٥ ، هيئة الكتاب .

الغـــــــربـان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح ١٩٨٨ ونشرت ١٩٨٧ هيئة الكتاب .

جاسوس فى قصر السلطان * (مسرحية شعرية) قدمت على المسرح فى عام ١٩٩٢ ونشرت ١٩٩١ هيئة الكتاب .

رحلـــة التنـــــوير * (مسرحية وثائقية مع سمير سرحان والمادة العلمية لسامح كريم) قدمت على المسرح عام ١٩٩١ ونشرت ١٩٩٢ هيئة الكتاب .

ليلـــة الذهــــب * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب .

حـــــلاوة يـونس * أربع مسرحيات من فصل واحد ١٩٩٣ - هيئة الكتاب .

الســادة الرعـــاع * (مسرحية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب .

الدرويش والغــازية * (مسرحية) ١٩٩٤ هيئة الكتاب .

أصــداء الصمــت * ديوان شعر ١٩٩٧ هيئة الكتاب .

واحـــات العمـــر * سيرة أدبية ١٩٩٨ هيئة الكتاب .

واحـــات الغـــربة * سيرة أدبية ١٩٩٩ هيئة الكتاب .

حـــورية أطلـس * ديوان شعر ٢٠٠١ هيئة الكتاب .

واحـات مصـــرية * سيرة أدبية ٢٠٠١ هيئة الكتاب .

حكايات الواحــات * سيرة أدبية ٢٠٠٢ هيئة الكتاب .

الجـزيرة الخضـراء * رواية تاريخية ٢٠٠٣ مكتبة الأسرة .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٠٢٩ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8970 - 7